الدفاع عن النفس

نزعة نفسية تلون افكارنا وتوجه سلوكنا

ليس الدفاع عن النفس بالاثواب والاظفار او ما يقوم مقامها ما نبغي ان نصفهُ او ننبه اليهِ في هذا المقال. فهذا اوضح من ان يحتاج الى وصفهِ او التنبيه اليهِ . انما الذي نريد ان نصفهُ هنا هو ظاهرة نفسية لها في تلوين حياتنا العقلية وفي توجيه سلوكنا اثر اعمق واعم مما نستطيع ان نصف او نحب ان نعترف بهِ . هذه الظاهرة هي ظاهرة الدفاع عن النفس ذلك الدفاع السلبي الهادىء الذي نلجأ اليهِ كلما حزبتنا حقائق الحياة واحرجتنا حوادثها. ونحن قلما نفطن الى اثر هذه النزعة في حياتنا لاننا نرغب دائماً ان نظهر بمظهر الانصاف والتجرُّد في التفكير ، ولا نحب ويحب الناس ان نتخلَّص من انانيتنا القديمة الصاخبة

والدفاع عن النفس على هذا النحو قد يتخذ صفة الاعتدال او المبالغة . فان كانت الاولى فهو مقبول مُسَاغ الى حدٍّ ما . وفيهِ يوفق المرء بين احوال نفسهِ الراهنة وبين حقائق العالم الخارجي ، فينشأ من ذلك نوع من الاتزان يريحه من كثير من انواع القلق النفسي المحض. ولكن اذا بالغ المرء في الدفاع عن نفسه والدفاع عنها فهناك الخطر ان لا يعود يرى في نفسه الاَّ انه ضحية لغفلة الناس وجهلهم . وينزل منه هذا الوهم منزلة اليقين، فتصبح حياته نزاعاً عنيفاً ، ويتولاه مقت شديد للناس يدنو بهِ من حدود الوسواس او الجنون المطبق . ونحن لا نرغب ان نعالج الاَّ هذا الجانب المعتدل من الدفاع عن النفس ، لان الجانب الآخر هو في الحقيقة من اختصاص طبيب الامراض العقلية

اما الدوافع الاساسية لهذه النزعة فهي الشعور بالنقص والحرمان من جهة وما نطرأ عليهِ من كره للنقص وحب للكمال من جهة ثانية . فبواعث هذه النزعة اذاً موجودة في كل فرد لان كل فردٍ ، باعتبار الغير ، ناقص وكل فرد يسعى على نحوٍ ما ، ليسدَّ هذا النقص او ليخفيهِ عن نفسه على الاقل ؛ لانه يؤلمنا ويقضُّ مضاجعنا ان نرى معائبنا بادية في كل آن امام وجوهنا . ومن هنا نرانا لا نألو جهداً ولا ندخر وسعاً في ازالتها . واذا اعجزنا ذلك فلا اقل من ان نموهها بما يخفي قبحها فتبدو مكتسية بثوب الكمال

ومظاهر الدفاع عن النفس شتى لا تقع تحت حصر . بعضها يسهل ارجاعه الى مصدره

والبعض الآخر لا يظهر الا بالتدبر الشديد والتجرد المطلق ، لا سيما ان بعض المظاهر التي يتخذها الدفاع عن النفس ينتهي بصاحبه مع التكرار الكثير بالاقتناع ، فلا يعود المرء يشعر انه انما يدافع عن خطأ او خصلة يشعر هو بشذوذها وبؤسها . فتجده يتحدث الى الناس والى نفسه كأنَّ الامر الذي يتحدث فيه امر واقع وفي الصميم من الحق والصواب

* * *

من الاشكال العديدة التي يتخذها الدفاع عن النفس انتقاص الغير والتقليل من شأنه سواء اكان المنتقص شاعراً بالحافز له على ذلك ام غير شاعر. فحينما يبلغ شعور المرء بالنقص حدًّا بعيداً ويوقن انهُ لا قبل له بالالحاق بمزاحميه . ولكنه يرى انه يستطيع ان يطمئن من منزلتهم ، ويصبح همه وقتها الازال من قدرهم فقط ، ولا يعنيه بعدها أرفع نفسه ام ابقاها في مستواها الذي تضطرب فيه . فالمسألة تصبح عنده مسألة مسافة فقط . والذي يصدُّه غالباً عن السير صعداً هو ما كان من تضخيمه لبعد الشقة بينه وبين هؤلاء المزاحمين مما يشبهُ من اليأس بهم او على الاقل ، من الدنو منهم

ولكن اذا لاحظ المرء انه لا يستطيع ، بوسيلة من الوسائل ، ان يوطىء من قدر غيره ممن هم فيه منه ليتضع على نفقهم ، يصبح همه عندها اقصاء هذا الغير عنه بالقاء عليهم والاعظام من شأنهم ليضع له العذر الكافي ، امام نفسه وامام الناس ، في عدم اللحاق بهم. فكاتب فقير مثلا يتدرج جدًّا ان يهجم على شكسبير ، بينما برناردشو وانا تول فرانس ينتقدانه انتقاداً مرًّا . على ان هذا لا يعني مطلقاً ان كل حافز الانتقاد هو الدفاع عن النفس . ولكن مما لاشبهة فيه ان قسطاً كبيراً من الانتقاد مرده الدفاع عن النفس . والذي يزيدنا اقتناعاً بهذا ان المرء كلما نبه شأنه وابتعد عن ان تطوله سهام المنتقدين قلت عنايته بالانتقاد

ويزداد التباغض والاضطغان بين المتنافسين كلما كان أساس المفاضلة بينهم قريباً من الاشتراك ، لان ذلك يساعد الناس في الموازنة والترجيح . وهذا يفسر لماذا لا يحمل الاديبُ العالمَ والعالمُ السياسيَّ مثلاً ، بينما العالمُ قد يحمل العالمَ والسياسيُّ قد يحمل السياسيَّ. ذلك ان العالم والعالم او السياسي والسياسي يتباريان في جهة واحدة ونحو هدف واحد تقريباً ، مما يسهل على الناس تبين المجلي من المصلي. وهذا بدوره يجعلهما مجدَّان في الاستباق والمغالبة

* * *

وكما يكون الدفاع عن النفس بانتقاص الغير لتقريب المسافة بين المنتقِص والمتنقَص ، فعلاً ، او بالخيال ، كذلك يكون الدفاع عن النفس برفع النفس وتمجيدها . ويتخذ ذلك اشكالا متعددة لا نزال نستطيع تقصيها كلها ولكننا نكتفي بشكل واحد منها هو اشد

هذه الاشكال بروزاً واكثرها تلويناً لحياتنا وهو تمجيد المرء مواهبه العقلية . وفي الواقع ان اشد ما يعنى به المرء ويتوسل له بجميع الوسائل هو اثبات تفوقه العقلي . ولم ار امرءا احرص على شيء منه على اثبات سمو مداركه وفضل عقله . وتلاميذ المدارس هم على العموم اكثر الناس عناية بذلك . ذلك ان محيط المدرسة الفكري وتقارب الصفات العقلية بين التلاميذ (بالنسبة لاي مجموع آخر خارج المدرسة) واشتراكهم في الهدف يذكي روح التزاحم بينهم في هذه الناحية . والذي لاحظته ان التلميذ قد يضحي بكل شيء حتى بصحته الادبية كيلا يكون سبيل الى اتهامه بالتخلف الذهني . وليس بالنادر ان تسمع تلميذاً متخلفاً يتهم نفسه بمختلف التهم لكي ينفي كل شك يحوم حول مواهبه العقلية . فالتلميذ الذي يعزو تخلفه الى الكسل او ضعف الذاكرة او رفقة السوء او الانغماس بأنواع الرذائل قد تجده في كثير من المدارس، ولكن يندر جداً ان تجد التلميذ الذي يقر صراحة بالبلادة ويعزو اليها تخلفه . ولاعن مالا يقر التلاميذ بعدد الساعات التي يقضونها فعلاً في الدرس والتحضير، هذا بالرغم عما يسمعونه ويترأونه كل يوم من ثناء على فضيلة الجد والمثابرة

على انهُ اذا لم يستطع المرء ان يتراءى واماماً الناس بتخلفه الذهني فلا يسعه في بعض الاحيان الا ان يقر بذلك امام نفسه حينما تميه الحيل وتسد عليه جميع المسالك ليقنع نفسه انه ليس كذلك . وهذا الاقرار قد يكون عن حق او موهوماً . فان كانت الاولى فانه صاحبنا يتخذ غالباً جانب الاعتدال في مطامعه فيريح ويستريح . وان كانت الثانية فهناك احد امرين : اما ان يخنع في مطامعه الى الاعتدال او ما هو دون الاعتدال ، او التعويض بطريق الجد والمثابرة عما يعتقد انهُ ينقصهُ من جانب القدرة الطبيعية . وفي هذه الحالة الاخيرة ، حينما يقترن الجد بالذكاء ، يصنع المرء العجائب . وقد تدهشهُ مثل هذه النتيجة فيعزو نجاحهُ مخلصاً الى جده واجتهاده . ولعلَّ هذا يفسّر كثيراً مما نقرأه عن رجال العلم والمال من عزوهم نجاحهم الى المثابرة والاجتهاد . وعلى كل لا يجرؤ هؤلاء على البوح بما يعتقدون انهُ السبب الاقوى في نجاحهم الا متى ايقنوا ان ذلك لا يؤثر في تقدير الناس لمواهبهم

وكالفرد الجماعة من حيث الاثر الذي يخلفهُ الشعور بالتخلف الذهني . فاذا شعرت الجماعة ، لسبب ما ، بالنقص في هذه الناحية فانها تسعى ، اذا ساعدت احوال المحيط ، للتعويض عن ذلك بالكد والعمل . وهذا يفسّر الى حدٍ ما تفوق الطلاب الزنوج والصينيين في كثير من مدارس اميركا . ومن علماء الاجتماع (الدكتور ملر استاذ علم الاجتماع في احدى جامعات اميركا) من يعتقد ان الشعب الذي سيكون له اوفر حظ في التقدم الفني في اميركا هو الشعب الزنجي . وهم يعتقدون ايضاً ان الصينيين سوف يقودون العالم في عالمي العلم والعمران لهذا السبب

وقد لا يجري فعل التعويض مجرّى عملياً ، فيظهر بمظاهر مختلفة : منها ما يكون سليم العاقبة على صاحبه ومنها ما يكون وبيلها . فمن ابواب التعويض غير السهل ان يعمد المرء حيثما يحسّ بالنقص ، الى الخيال ويسخره ليتم هذا النقص . وقد يلجأ خياله بفعل التعويض فيصح ، وهو السلوك ، الآمر الناهي ويضحي ، وهو الجبان الرعديد ، الشجاع الذي ينصر الغير ظالماً او مظلوماً . واذا اسرف المرء في هذا النوع من الدفاع عن النفس — واذا شئت هذا التخدير العقلي — فلا شك ان ذلك يكون اول بوادر الجنون . ويجب ان نلاحظ هنا ان امرءاً هذا حاله يكون بالفعل سعيداً ، لانهُ يعيش دائماً في عالم يبنيه خياله جاعلاً شيئاً في اقصى حدود النشاط يسهل عليه تحية كل ألم واحساس بالحرمان . والتصور التي يبنيها خياله تحلّ عنده محل الحقيقة الواقعة . ومن هنا صدق القول بان المجانين هم اسعد الناس

وقريب من هذا ما نراهُ في الاطفال من ميل شديد الى تصديق كل ما يعرض عليهم من اخبار البطولة والاستمتاع بانواع اللذة . والاطفال هم على الاجمال ، اول من يؤخذ باوصاف الجنة واخبار المخاطرات . ذلك ان خيالهم يضخم لهم سعة مشتهياتهم وعجزهم يقعد بهم عن نيلها ، فينشأ في نفوسهم هذا الميل الشديد الى اخبار البطولة والاستمتاع باللذة ، لان هذين هما اول ما يشغل عقولهم الفتيّة . والملاحظ انهُ كلما ازداد سعي الفرد والامة ونالا من اسباب العز والرفاه قلّ تأثرهما بما توصف به الجنات وما يوعد به الابرار الصالحون . ولعلّ هذا يفسر قول السيد المسيح دخول الخيط في سم الخياط أهون من دخول الغني ملكوت السماوات . ومن الملاحظ الجلي ايضاً ان المرأة ، كالاطفال ، تأسرها الروايات المعتنة في الخيال . وهذا ليس امراً عارضاً : انما هو تعبير صامت عن شعورها بالضعف ومقياس لمقدار ما تشتهيه من قوة ونفوذ فتعوض عن ذلك بطريق الخيال

ثم هناك نوع غريب من التعويض يظهر في رفقة المتناقضين من الناس في الصفات العقلية او الخلقية فكأن احدهما يعوض عما هو مستقرٌ في نفسه من احساس بالنقص في احدى الصفات باتصاله بمن يفضله في هذه الصفة ، كانهُ يحسُّ بان صفة هذا الشخص المشتهاة تنمره وتنعكس عنهُ لدى اتصاله به . اما هذا الشخص ذو الصفة المشتهاة فهو لا يميل بادئ الامر الى صحبة ذاك ولكنهُ ازاء اخلاصه والحاحه لا يسعهُ الاّ النزول على شهوته . ومن هنا يجب ان تكون حذرين حينما نقول ان القرين يعرف من مقارنه

ومظهر آخر للتعويض يمثله ذلك الصنف من الكتاب الذي تخلو كتاباتهم من كل عميق وابتكار ، فيعمدون ، ليخفوا هذا العيب ، الى البهرجة اللفظية ويتصرفون عن التراكيب المنسجمة والالفاظ المألوفة الى التعقيد والاغراب . ويحشدون بهذه كلها كتاباتهم فتبدو

كأنها معاجم وقواوين لغة جمعت للاستشهاد بها على شواذ اللغة وشواردها : يهولون بهذه البضاعة الزائفة على القراء كما يهوّل الحواة على المشاهدين بتقليهم حياتهم ومنشآتهم بين أيديهم . وقد تقرأ الفصل او المقال فلذا المصنف من الكتاب ، فتجد ان شروح الالفاظ تحتلُّ من الكتاب او الصحيفة اكثر مما يحتله المتن . وقد يدهشك بادىء بدء ان تراهم يجرؤون على عرض مثل هذه البضاعة على القراء في عصر المقامُ الاول فيه للمعاني . ولكن متى علمت ان الدافع لهم على ذلك هو دافع نفسي عميق تخضع له انت وانا وهم على السواء — متى علمت ذلك عذرتهم بعض العذر : اقول بعض العذر ، لانهُ كان اولى بهم ان ينصرفوا عن الكتابة بتاتاً الى ما هو اجدى لهم وللناس كممارسة صناعة او تجارة او ما هو الى ذلك مما يستطيعون أن يبذُّوا فيه

***

واتهام المرء غيره واشراكه بما يحسه هو من نقص، شكل آخر عام يتخذه الدفاع عن النفس. ومظاهر هذا الشكل شتى لا يحيط بها تقصٍّ ، نذكر منها ما نراهُ في اناس مخصوصين من مقت شديد لانواع من الرذائل هم اول ضحاياها . فتراهم يتعقبون اصحابها ويهاجمونهم مهاجمة عنيفة ويوسمونهم لوماً وتشهيراً . فيوجد هذا فيهم نوعاً من الاطمئنان بصالحهم مع نفوسهم ، لانهُ يوجد لهم شركاء عديدين في ذنوبهم يعذبهم هم كما هو يتعذَّب . وينسى البعض الدافع الحقيقي لهم على ذلك فيعتقدون انهم يضمرون الفضيلة فقط من اجل الفضيلة ولنا امثلة كثيرة على هذا النوع من الناس في تاريخ الاصلاح الديني والسياسي والاجتماعي. ومما لا شك فيه ان قسطاً وافراً من النجاح الذي يلاقيه رجال الاصلاح المرتدين من دينٍ الى دين ومن مذهب سياسي او اجتماعي الى مذهب آخر مرجعه ، في الاكثر ، هذه القوة المستترة التي يحولونها من طريق الاختصام مع النفس الى الاختصام مع الغير

والشيوخ (بعض الشيوخ) يثنون داعاً على الشباب انحطاط الاخلاق والانهماك باللذاذ الجسدية والمتع الزائلة (وقد كانوا يوماً شباباً) لا لانَّ الشباب هم حقيقة كما يصورون ، بل لان هؤلاء الشيوخ — ونرجو ان لا يغضبوا — يشتهون ولا سبيل الهما يشتهون. والميل الذي يظهره البعض الى الزهد والتقشف قد لا يكون له من اساس الا طلب المتعة من جهة والعجز عن نيلها من جهة اخرى . فينطبق عليهم مثل الثعلب والعنب

والجماهير لا تتساهل مع الخطيب الذي يشتدُّ في تقريعها ويغضي بعدد معائبها وهفواتها واحدة واحدة الا لانَّ كل فرد يحب ان يسمع غيره يتَّهم ببعض التهم التي يتهم هو بها نفسه ليصح له شركاء في ذنوبه التي تسلبه الراحة والاطمئنان . فالدافع الاساسي الذي يدفع

الجماهير الى التصفيق للخطيب الذي يسرف في تأييدها لا يرجع ، في معتقدنا ، الى ان كل فرد يحب ان يؤنب انما لان في كلام الخطيب اتهام عام للجمهور. فيصبح هذا الجمهور شريكاً لكل صاحب ذنب ورذيلة في ذنبه ورذيلته . وهذا يهبه شيئاً من الاطمئنان وراحة الضمير. واذا كان القارىء في شك من كلامي، وكان ممن مارس الخطابة ، فليؤنب جمهوراً في شيء ما ثم ليكلمهم افراداً بعض ما تكلم لهم به مجتمعين وليرَ بعدها هل ينجو من لذع كلامهم اذا لطف المولى ونجا من قبضات ايديهم . وتبلغ اناية الجمهور حداً يجعله يتمض من الخطيب الذي ينزل عنه مقرضاً بصفة المخاطب مخرجاً نفسه من دائرة الاتهام . والذي لاحظته ان الخطيب الذي ينزل كلامه الى قرارة النفوس هو الخطيب الذي ينادي: «نحن» وليس «انتم»

ثم نحن نبيح لانفسنا ان ننتقد انفسنا ونتهمها بمختلف التهم مستدين او مسرفين . ولكن حينما يجيء هذا الانتقاد عن طريق الغير تتنبه حالاً غريزة الدفاع عن النفس فتهب لدفع التهمة ، او على الاقل ، اشراك المتهم بها . ولعل القارىء يذكر قصة ذلك الشاب الذي جلس الى كاهنه يكشف له عن خبايا نفسه ويعترف له بالزلة اثر الزلة . فلما انتهى نظر اليه الكاهن نظرة الارتياح وقال : اشكر المولى انك قلت الحقيقة ولم تخف عليَّ شيئاً . فاكاد يلفظها حتى حلق فيه شابنا حلاقة الغضب وقال : بالرغم عن هفواتي وزلاتي كلها اراني اظل اتقي نفساً وأقل وزراً منك ايها الكاهن الشرير !

هذه بعض مظاهر الدفاع عن النفس — اقول (بعض) مظاهره ، لانني والحق يقال لم ارَ نزعة اكثر تغلغلاً واعمق اثراً في توجيه سلوكنا من هذه النزعة . ليعد القارىء الى نفسه يوماً او بعض يوم — اذا شاء — وليجرِ عليها هذا الاختبار البسيط : ليدوّن كل قول او عمل او فكر من افكاره ، ثم لينظر آخر النهار في دفتره وليفحص بتجرد (واخلاص) الدوافع التي دفعته الى كل ذلك . انني موقن بأنه سيرى ان اكثر ما فكر به او قاله او عمله في يومه هذا كان تهالكاً منه على تبرير نفسه وغسلها مما الصقته بها هو وغيره من تهم مقلقة . وانا شديد اليقين ايضاً بأن اكثر ما يقال من على المنابر وما تخرجه المطابع هو دفاع مباشر او غير مباشر عن النفس وما يمتُّ اليها كالدفاع عن الدين او الوطن . ولو اتيح لنا ان نفرز من مكتبات العالم منشآت الفكر التي كان الدافع اليها نزعة الدفاع عن النفس لتقلصت هذه المكتبات الى نصفها او ما هو اقل من ذلك

بعد هذا هل يحق لنا ان ندعي اننا نفكر تفكيراً صحيحاً مستقلاً عن اهواء النفس ونوازعها ؟ ؟ ليجب القارىء نفسه اذا شاء

الحصن — شرقي الاردن اديب عباسي